## "الأركـــوني" بتضـــاداتـــه يلقـــي الـــــوداع

# مفكرون: كان تلك البدعة الخـلاقـة للجـدل المعرفي

البلاد هدير البقالي

**قد تكون التجربة الأخيرة لمفكر حاذق باستنهاض العقل والفكر معاً، وقد تكون اجتهاداته الخالصة لم تكتمل بعد، ولن تكتمل مع حدود المعرفة المجددة للفكر الإسلامي، لكن محمد أركون بأدواته الصريحة بحث في كل منافذ العقل بكل تكويناته ومكنوناته، ومعطياته، وحصـد كما ثقافيا هائلا في بطون الكتب التي تمخضـت بعقدة تراكيبه وتفاصـيليه لأطروحاته التي تثير ذائقة المجتمع العربي المعاصر، وتقارب النزعة الثقافية لنقد العقل، لذلك يقول أركون "إنّ الصـعوبة الكبرى التي تواجهنا تكمن في كيفية تحرير العقل النقدي من القيود الابسـتمية والابسـتمولوجية التي فرضها العقل الدوغمائي على جميع الممارسات الفكرية والثقافية التي قام بها الفكر البشري منذ انتقاله من المرحلة "البدائية" أو "الوحشية" (بحسب مصطلح كلود ليفي ستراوس) إلى المرحلة الزراعية المدنية، ونعلم أنّ هذه الأخيرة معتمدة على التضامن الأيديولوجي بين الدولة والكتابة والثقافة المكتوبة العالمية (الفصحى)، والشيفرة الأرثوذوكسية لتدبير العقول والأفراد والجماعات".**

• صابر حباشة

• جعفر حسن

• عبدالقادر فيدوح

• نادر كاظم

• ضياء الكعبي

هو هكذا، يتـداول الفلسفـة الإنسانية على طريقته التنويرية، لينخرط في مسار الهم الثقافي والإسلامـي، والعلماني بـكل مشاربه مـن رؤيته في فصـل الديـن عـن الدولـة، أو قـراءة عصرية لكتب الـتراث، والخـروج عن عقائدهـا الجامدة والمتصنمـة، وبمنطقـة أخـرى يرى أركـون "انّ العقـل الاستطلاعـي الجديد يكافـح على جميع الجبهـات، وانـه لا ينحاز للغـرب أو للشرق، إلى الديـن أو الدنيا، إلى سياسـة شرعية لاهوتية أو فلسفـة إيجابويـة علمانوية. بل انـه ينتمي إلى مذهـب الاتّهـام الفلسفي المنهجـي البنّاء، هذا المذهـب الذي يشـكّ في كلّ ما ينطـق به العقل ويحـاول تأسيسـه كمذهـب لا مذهب سـواه أو بعده، ثم يفرضـه الإنسان بالقوة على الإنسان" وفي نـونِ البـلاد يجتمع النقـاد والمفكرون لرثاء الرائد الأركوني...

### محمد أركون... شعلة تنطفئ

يقـول الأكاديمي عبـد القادر فيـدوح "من خصوصيـة القـدر المحتوم أن يأخـذ نصيبه من أقطاب الفكر ثلاثة شوامخ فجأة، عِزاً ورفعة، وفي ظرف قياسي، ليضع صورة النهاية في حكم قضاء اللّه وأمـره. وتشاء الصدف الخافقة أن ينزل علي خـبر وفاة محمـد أركون؛ الأمر الـذي أحدث رعدا مدويا في داخلي، بينما كنت قبل ساعات أتحدث فيها مـع أحد زملائـي في شؤون الفكـر العربي، فهل هي الأقدار التي من شأنها أن تضفي علينا طابع الإيمان بالمصادفـة، في مثل هذه المواقف التـي يسبق فيها فعل الموت فعل الحياة، أم هو طلـب الحاجة إلى تلبية النـداء بالتفاعل الروحي مع من تتذكره؟ ولكن حـين نتذكر أن الموت هو الصديق الوفي الذي يفي بوعده حين يشرف على صاحبـه، ويدركه ويتوفـاه، نستسلم لقضاء اللّه وقدره.

يغيب عنـا المرحوم أركون بعـد حياة حافلة بالعطاء، والجدل، والمثابرة في التعاطي مع الجِدّة والجدية، خدمة للفكر بوجه عام.

لقـد كان أركون حاضرا مـع الوعي العربي في صورة ترسـم ملامح التضاد في كتاباته المربكة، وإنجازاتـه الإبداعية العظيمة، التـي خلدت نقلة مميزة في حقل الدراسـات الفكرية والثقافية في العالم.

هو محمد أركون المغادر عنا فجأة، وهو نفسه الـذي يحتاج منا إلى ترتيب أفـكاره المبثوثة في ثنايا أعماله المائزة مـن جديد بعد رحيله الأبدي الذي سيـترك في الوعي العربي عادات البحث في المكـرور عن نقـاط الحروف في معنـى اللامعنى، وجدوى اللاجدوى، باللأاين، في اللاوصول.

صحيـح أن صدق مشاعره كانـت تصبو إلى جعـل حلم الفكر العربي في باب التساؤل، غير أن خيوط هذا التساؤل سرعان ما تُفَكّ من الذات بعد فَتْلِهَا.

وصحيح أيضا أنه كان يمسك حلم النقد بيد، بينما يـده الأخرى يمسك بها قناع النقض، فظل حلمـه ينمو في غـيره، بينما يفترش حزنه أرض ضميره الجمعـي، ويعزف لحـن الربابـة، فوُسِمَ بالنقض والإبهام.

لقد جمعتنـا المصادفات ذات مـرة في أثناء زيارتـه البحريـن في جلسـة هادئة مـع الصديق الدكتور عبد الكريم حسن، وقال حينها. ما معناه . كتاباتـي نور يلفّ وعـي الفكر الغربـي، ويُشِع علـى سواد نظرتهم صوبنا. "وكنت تردد دائما: أحاول أن أرسـم ملامح فكري وصيحات ضميري الجمعي"

لقـد تـرك محمـد أركـون بصمـات واضحة المعالم على الساحة الفكرية والثقافية، كما ترك الفلسفة التي كان فيها يسبح، وطويت مع غيابه صفحـاتٌ سائلةٌ، وأقـلامٌ متسائِلةٌ بما لم يتحقق من ورائها فعلٌ صائب من آرائه المجادِلة".

### ورَّط الثقافة العربية بأسئلة صادمة

بدوره، قـال المفكر نادر كاظم راثيًا "أصبح مـن حق العام 2010 أن نسميـه عام الفقد وعام الخسـارات الكبرى التي جاءت تـترى واحدة بعد الأخرى. فقد ابتدأت محلياً برحيل محمد البنكي ثم راحـت دائرة الفقد تتسع عربيـاً لمحمد عابد الجابـري ونصر حامد أبو زيد ومحمد حسين فضل اللّه والآن محمـد أركـون. ولـكل واحد مـن هؤلاء اجتهاداته وبصماته المميزة كل في مجاله ودائرة اختصاصة واهتمامه.

ويبقى محمد أركـون أكثر هؤلاء إثارة للجدل العمومـي منـذ ترجمـة مؤلفاته للعربيـة. ويبدو أن مرجـع ذلـك إلى أن أركون قـد صدم الثقافة العربية والإسلامية في ساحاتها الشعبية والنخبية بحزمـة ضخمـة وصادمة مـن الأسئلـة والأفكار والمصطلحات والمنهجيات التي لم تكن معهودة في قراءة ونقد الظاهرة الدينية في مجتمعاتنا.

ينبغـي أن نقول الآن إن قيمـة محمد أركون تكمـن في هـذه النقطـة بشـكل مركـز، في علاج السبـات الفكري والنقـدي في الثقافـة العربية بصدمتـه وصعقـه بأسئلـة ومصطلحـات ومنهجيـات كان يستمدهـا من فوكـو وبورديو وبروديـل وكامل الحقـول المعرفيـة المنضوية تحـت مظلة العلـوم الإنسانية من علـم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات والنقد الأدبي وعلم النفـس والفلسفة والسيميائيـات وعلم الأديان المقارن والتاريخ الجديد.

وبهذه العـدة المنجيـة والمعرفية المفتوحة على كامـل العلـوم الإنسانية تمكـن أركون من التصـدي لقراءة الظاهرة الدينيـة ولنقد العقل الإسلامي بأفق معـرفي منفتح وبقي على مسافة مـن الأيديولوجيـا والتنظيـف الأيديولوجـي والسياسـي لهـذا النقـد. يمكن القـول انه كان صادماً لكنه لم يكـن صدامياً، كان نقده معرفيا ولم يكـن أيديولوجيـاً، ولهذا تمكـن من تقديم قراءة مغايرة للظاهرة الدينية وللعقل الإسلامي، قـراءة أسس مـن خلالها ما أسماه "الإسلاميات التطبيقيـة" التي كانت تهدف إلى قراءة ماضي الإسـلام وحاضره انطلاقاً من خطابات المجتمعات الإسلاميـة والعربيـة وتاريخياتهـا وحاجاتهـا الراهنة.

ولأركـون وأمثالـه يعود الفضـل في قطيعة الفكـر العربـي والإسلامـي مـع المماحـكات الأيديولوجيـة العقيمـة والعبثيـة التـي ميّـزت أطروحـات المنخرطين السابقين في نقد الخطاب الديني ونقد الظاهـرة الدينية. ولأركون وأمثاله تديـن الثقافة العربية والإسلاميـة بتلك البدعة الخلاقة للجدل المعـرفي والنقدي المسؤول الذي دار حول قضايا وظواهر كانت في غاية الحساسية كالعلمنة والظاهرة الدينية وخطاباتها.

ولأركـون، كذلـك، تديـن الثقافـة العربية والإسلاميـة بتمكنه (ولا ينبغـي أن ننسى فضل مترجمه هاشـم صالح وبراعته في ذلك) في غرس الكثير من المصطلحـات والمفاهيم التي فتحت آفاق واسعة أمام القراءة والدرس في هذا المجال، ويكفي أن نذكر هـذه المصطحات التي ارتبطت بأركون ارتباطا صميمياً: الإسلاميات التطبيقية، والسيـاج الدوغمائـي المغلـق، ونقـد العقـل اللاهوتي، والعقل القروسطي، والأرثوذكسيات، والإبستيـم أو الفضـاء المعـرفي، والرأسمـال الرمـزي، والمتخيل، والحقل الدينـي، والقطيعة الإبستميولوجيـة، وتجربـة المدينـة، والظاهـرة الدينية، والظاهرة القرآنية، ومجتمعات الكتاب، واللامفكـر فيـه والمستحيـل التفكيـر فيـه، والدراسـة التاريخيـة والأنثروبولوجيـة للدين، والنصوص المؤسسة...إلخ.

لـن أكـون مخطئـاً إذ قلت ان مشروع محمد أركـون في نقد العقـل الإسلامي لا يضاهى، على سبيـل المثـال، مشروع محمـد عابـد الجابري في نقـد العقل العربـي من حيث الرصانـة والنفس التحليلـي الطويل، إلا أن قيمة أركون لا تكمن في الرصانة والجهد التحليلي، بل في تمكنه، وبمهارة واقتـدار مشهودين، في توريـط الفكر الإسلامي وحتـى العربي بالكثير الكثير مـن الأسئلة التي لم تكـن معهودة مـن قبل، وبالكثـير الكثير من المصطحـات والمفاهيم والمنهجيات التي شغل بها الناس ودنياهم في العالم العربي والإسلامي.

### في رحيل أركون

وقالـت الناقدة ضيـاء الكعبي "يعد المفكر الجزائري الفرنسـي الجنسية محمد أركون واحدا مـن أبرز المفكرين العرب الذيـن تصدوا لمهمة التنقيـب والحفـر في العقـل الإسلامـي ونقـد العقـل التشريعي بجـرأة وشجاعة كبـيرة أحسب أن مصدرهـا كون أركون يستند إلى المؤسسات الأكاديميـة والدوائر الثقافيـة الغربية ويجد في ملاذهـا الحريـة التي تحميـه وتتيح لـه التعبير والبحث كما يريد ومن هنا كانت صولاته وجولاته في المحاضـرات الكثـيرة التي جاب فيهـا أقطار العالم الإسلامي من أندونيسيا إلى الخليج العربي للتبشير بمشروعه الفكري. ورغم اعتراضي الكبير علـى ما أسماه أركـون بتاريخية الخطاب القرآني في مشروعه عن الإسلاميـات التطبيقية حيث أراد تطبيـق منهجيات العلوم الإنسانيـة على القرآن الكـريم شأنه في ذلـك شأن أي نصـ بشري دون النظر إلى مصدره الإلهي وإعجازه القرآني.

ويحسـب له دعوته إلى إعمال العقل وإعجابه الشديـد بالمعتزلة أصحاب الـتراث العقلاني في الإسـلام ودعوته إلى إعـادة دراسـة مأثوراتهم وإرثهـم وتطبيقـه بمـا في ذلك إعـادة المجالس الثقافيـة التـي مثـل لهـا بمجلس أبـي حيان التوحيـدي مع أبـي سليمان المنطقـي في كتاب الإمتاع والمؤانسة بمقابساته الأدبية والعقلية.

وأحسـب أن أركون عمق خطابـه بين طائفة من مريديـه ولكن خطابـه ينبغي أن يقـرأ بحذر شديد حتى لا يقع المتلقي في فخ سطوة الخطاب المتعالي الكارزمي. ولـذا فإن هذا الخطاب يجب أن يدرس دراسـة علميـة نقدية وليـس قراءة انطباعية انبهارية تقديسية".

### مستشرقاً جديداً

وتحدث الناقد صابر حباشة عن اركون قائلا "ككل المشتغلين بقراءة التراث الفكري العربي الإسلامي، اختلف الناس في تقييم "مشروع" محمد أركون في الإسلاميات، حيث اتخذه بعضهم معلما من معـالم تحديث مناهج النظـر في ذلك التراث اعتمادا على آخر مكتشفات العلوم الإنسانية كما ظهـرت في دوائـر البحث العصـري المتخلص من المسبقـات الإيديولوجية والتحيـزات العاطفية وكأنه ابن رشد معاصر.

فيما اعتبره البعض الآخر "مستشرقا جديدا" ينتحي منحى المستشرقين يخاطب جمهورا غربيا ويبحـث عما يريد أن يصل إليـه مما قرّره سلفا، فكأنـه بذلك يواصل مشروع الاستشراق بطريقة أخرى.

قرأت لمحمد أركون بعض ما كتب واستمعت إلـى بعض محاضراتـه، ورأيت "أفـكاره" تتجول بين تلاميذه وخصومه... والحق أنّ الرجل يستحق قـراءة متمعنة لا تكتفـي بنمذجتـه أو "تعليبه" ضمـن هذا الاتجاه أو ذاك. ولا يعني ذلك الركون إلى تقويم مفرط في النسبوية المائعة.

ولكن قد لا تكون المسافة النقدية المتوفرة حاليـا غير كافية لإنصافه، إن تبيّن أنّ قارئيه لم يفهمـوه حق الفهـم أو الانتصاف منـه إن كانت كتاباتـه تشفّ عن رغبة في إرضـاء الآخر الغربي، عـبر استلهـام مناهجـه استلهامـا قـد لا يكون ملائما، في كل الأحوال.

ولعـل أهم ما يمكـن أن نصف بـه "مشروع" أركـون الفكري أنه حـاول التجديد سواء أنجح في ذلك أم لم ينجح. يبقى للتاريخ الحكم الفصل.

### أركون يودع الكتابة

وارتأى الناقد جعفر حسن أن يختم رثاء أركون خلال "نـون" بقوله "ودعت الثقافـة العربية في هذا العام مجموعة من المفكرين الذين ساهموا في الفكر النقدي للثقافة العربية، تلك الثقافة التي باتت بحاجة ماسة للعقل النقدي في جوانبها كافة التـي باتت تعاني مسلمات تيبست في مفاصلها، فرحيـل محمد عابد الجابري ونصـر حامد أبي زيد والطاهر وطار، آخرهم محمـد أركون ليطرح على المتأمل مصوغة غاية في الغرابة، فكلهم واجه من التيارات الفكريـة المتعصبة هجمة شرسة جعلته يهاجـر إلى بلاد غير بلاده ويكتب من هناك حيث تتاح له الحرية التي لا وجود لها في بلادنا العربية رغـم كل التشدقـات التي ترشقنا بهـا وسائل الاعـلام، فهناك في كبد القانـون يقبع داء القمع الفكري، الذي يحاكم بواسطته المفكرون وتقام عليهم دعاوى تصل لحدود الحسبة.

وبعـد الانتبـاه إلـى دخول المفكـر في دائرة المـوت الحيادية تجاه حركـة المجتمـع يطالب المجتمـع الـذي طـرده إلى خـارج البـلاد بعودة جثمانـه ليدفن في تراب وطـن لم يتسع له عندما كان حيا، هـذا يذكرني بقصيدة جميلة ذات قول لحمـدة خميس "لم يكن الوطن لي كي احيا، صار الوطن لي كي أموت"، هكذا يغادرنا محمد اركون الذي ناقش فكر طه حسين في الوقت الذي كان الفكر القومي يجدد ثيـاب الوطن العربي، ومنذ تلـك اللحظـة حتـى مماته وعـبر كل كتبـه كان يحاول كما حاول اصحابه تجديد الثقافة العربية في جانبها الديني ذلك الجانب الذي يعتقد أنه في دائرة المقدس".